جامعة الأزهر
كلية الدراسات الإسلامية والعربية
للبنات بالمنصورة

فنون البلاغية في أم الكتاب

دراسة تطبيقية

بقلم الدكتور

عبد المجيد عبد المجيد هنداوى جعفر

مدرس البلاغة والنقد فى الكلية

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذى علم بالقلم علم الإنسان مالم يعلم وأصلى وأسلم على أفصح من نطق بلغة العرب سيدنا محمد وعلى آله وصحبه ذوى الفصاحة والبلاغة والبراعة والبيان .

وبعد

فالبلاغة تعد من العناصر الأساسية فى دراسة وتفسير كتاب الله المعجز ببيانه وفصاحته، الباهر بنظمه وبلاغته، إذ لاسبيل إلى الوقوف على خصائص تراكيبه، وأسرار بيانه وغوامض لطائفه ، دون التمرس بأساليب البلاغة والبصر بضروب الفصاحة، وتذوق جماليات اللغة وطرائق استعمالاتها والإلمام بما فاضت به قرائح المرتادين لشعاب هذا الفن، وما هطلت به أفكار المحلقين فى أفق هذا العلم (١).

وأم الكتاب فيها من كليات العقيدة الإسلامية، وكليات التصور الإسلامى، وكليات المشاعر والتوجهات، مايحتاج إلى تذوق جماليات اللغة وطرائق استعمالاتها .

- **ففى قوله تعالى: بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ:** (٢) بدأت أم الكتاب "بِسمِ اللَّهِ" وهو الأدب الذى أوحى الله لنبيه صلى

---

(١) انظر الواحدى ومنهجه فى التفسير ٢٨٠ .

(٢) الفاتحة "لفظ الجلالة "الله" : علم لايطلق إلا على المبعود بحق، لايشركه فيه غيره، وهو الذات المقدسة ذات البارى جل وعلا، "والإله" معناه المعبود بحق أو باطل فهو اسم يطلق على الله تعالى وعلى غيره .

الله عليه وسلم فى أول مانزل من القرآن الكريم باتفاق وهو قوله تعالى : «اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ» وهو الذى يتفق مع قاعد التصور الإسلامى الكبرى من أن الله هو "الأول والآخر، والظاهر ، والباطن" فهو سبحانه الموجود الحق، الذى يستمد منه كل موجود وجوده، ويبدأ منه كل مبدوء بدأه، فباسمه إذن يكون كل ابتداء وباسمه إذن تكون كل حركة وكل إتجاه .

وإذا كان البدء باسم الله ومايطوى عليه من توحيد لله، وأدب معه يمثل الكلية الأولى فى التصور الإسلامى ، فإن استغراق معانى الرحمة فى صفتى "الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ" يمثل الكلية الثانية فى هذا التصور ، ويقرر حقيقة العلاقة بين الله والعباد.(١)

والفنون البلاغية التى تحملها هذه الآية تبرز هذه المعانى واضحة جلية ففى :

- **حسن الابتداء** : وهو أول مايقرع السمع، فإن كان اللفظ عذبا بسلامته من التنافر ونحوه حسن السبك بسلامته من التعقيد صحيح المعنى بمطابقته لمقتضى الحال، أقبل السامع على الكلام فوعى جميعه، وإن كان بخلاف ذلك ، أعرض عنه ورفضه، وإن كان فى غاية الحسن(٢) وأول مايقرع السمع فى فاتحة الكتاب "بِسْمِ اللَّهِ" الموصوف بالرحمة الذى تظهر آثار رحمته متجددة فى كل شئ، فإذا استشعر هذا المعنى، ووقر فى نفسه انطلق لسانه بحمد هذا الإله "الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ" وذكره

---

(١) انظر فى ظلال القرآن جـ١/ ٢١ باختصار .

(٢) انظر البغية جـ٤/ ١٥٠ .

الحمد بعظيم نعمه وكريم فضله وجميل آلائه فأجال بصيرته فى هذا الكون الفسيح ، ليقر بحمد الله الخالق المالك، يعبده ويستعين به وحده، ويطلب منه الهداية والرشاد إلى أقوم السبل مع عباده المؤمنين.

نشأ حسن الافتتاح وبراعة المطلع من سبك الآيات التى ترى فيها الإرشادات الوجدانية واضحة جلية .

الإيجاز : وهو فن من فنون البلاغة، بل هو عين البلاغة، روى الجاحظ ، قال لى ابن الأعرابى : قال لى المفضل بن محمد الضبى : قلت لأعرابى منا ماالبلاغة؟ قال الإيجاز فى غير عجز ، والإطناب فى غير خطل قال ابن الأعرابى ، فقلت للمفضل: ماالإيجاز عندك ؟ قال : حذف الفضول وتقريب البعيد (١) .

والإيجاز بنوعيه الذى تحمله هذه الآية الكريمة "بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ" هو مقياس بلاغة كل إيجاز، لأنه بلغ مبلغاً من الإعجاز البيانى، مالايدركه البليغ .

فالذى ينبغى أن يكون مقياس الحسن والبلاغة فى الإيجاز - كما فى الآية - مايحمله اللفظه من معنى، ومايلقيه من ظلال ومايثيره من صور وأفكار، فكلما كانت الألفاظ أكثر إيحاءً بالمعانى المقصودة، والصور والأفكار المطلوبة، كانت أدخل فى البلاغة ، وأقرب إلى الفصاحة، وبهذا وحده يمكن إدراك الإيجاز بصورته الحقيقة (٢).

---

(١) انظر البيان والتبيين للجاحظ جـ١/٦٧ .

(٢) انظر فن البلاغة صـ١٧٨ .

والآية فيها إيجازان :

أ - **إيجاز بالحذف** فى متعلق "بِسمِ اللَّهِ" أن يكون فعلاً مضارعاً، لأنه الأصل فى العمل والتمسك بالأصل أولى، ولأنه يفيد التجدد الاستمرارى، وإنما حذف لكثرة دوران المتعلق به على الألسنة، وإذا كان المتعلق به اسماً، فإنه يفيد الديمومة والثبوت، كأنما الابتداء "بِسمِ اللَّهِ" حتم دائم فى كل مانمارسه من عمل ونردده من قول(١)

والعلماء يقدرون المتعلق مؤخراً، لأن الأهم هنا هو المتعلَّق ، وهو اسم الله، ومن عادة العرب أن يقدموا ماذكره عندهم أهم، ولذلك قدم الفعل فى قوله تعالى "اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ" لأن القراءة هنا أهم لما كانت أول آية نزلت من القرآن .

ب - **إيجاز بالقصر** : بإضافة العام إلى الخاص(٢) "بِسمِ اللَّهِ" فلفظ الجلالة "اللَّه" علم لايطلق إلا على المعبود بحق خاص لايشركه فيه غيره .

- **الاستعارة** : وهى من الفنون البلاغية، وبلاغتها تبدأ من حيث ينتهى التشبيه ، وهى فى الذكر الحكيم من النوع الموحى لأنها أصدق أداة، تجعل القارئ يحس بالمعنى أكمل إحساس وأوفاه، وتصور المنظر للعين، وتنقل الصوت للأذن، وتجعل الأمر المعنوى

---

(١) انظر إعراب القرآن الكريم وبيانه جـ١/ ١٠ .

(٢) المصدر السابق جـ١/ ١٠ .

ملموساً محساً . ففى قوله تعالى : "بِسمِ اللَّهِ" إذا جعلنا الباء للاستعانة فيكون فى الكلام استعارة مكنية تبعية لتشبيهها بارتباط يصل بين المستعين والمستعان به .

المجاز المرسل : وإذا جعلنا الباء للإلصاق ، فيكون فى الكلام مجاز علاقته المحلية نحو : مررت بزيد ، أى بمكان يقرب منه لايزيد نفسه (١) .

واللفظ لايأتى علي غير حقيقته إلا لضرب من المبالغة وتمكين المعنى فى ذهن السامع .

الصفة : "الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ" صفتان للفظ الجلالة "الله" والوصف هنا لم يذكر لتوضيح الموصوف وتمييزه عن غيره، فالله جل شأنه لامثل له حتى يكون الوصف لتمييزه عن سواه وإنما جاءت الصفات للمدح والثناء لله سبحانه (٢) .

المبالغة : لفظ "الرَّحْمَنِ" مبنى على المبالغة ، ومعناه ذو الرحمة التى لانظير له فيها ، لأن بناء فعلان فى كلامهم للمبالغة، فإنهم يقولون للشديد الامتلاء ملآن، وللشديد الشبع شبعان .

---

(١) انظر المصدر السابق جـ١/ ١٠ .

(٢) انظر فن البلاغة ص٢١١ د/ عبد القادر حسين .

ولفظ الرحيم "أيضاً مبنى على المبالغة، فهو من صيغها ومعناه بلغ من رحمته أنه : المنعم بدقائق النعم (١).

- **التقديم** : قدم "الرَّحْمَنِ" على "الرَّحِيمِ" لأن أكثر العلماء على أن "الرحمن" مختص بالله عز وجل، لايجوز أن يسمى به غيره، ألا تراه قال سبحانه : «**قل** ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَنَ» (٢) فعادل الاسم الذى لايشركه فيه غيره، وقال سبحانه: أَجَعَلْنَا مِن دُونِ الرَّحْمَنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ» (٣)، فأخبر أن الرحمن هو المستحق للعبادة جل وعز.

وأما الرحيم : فإنه يطلق على المخلوق أيضاً : قال تعالى: «بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ» (٤) ومن أجل ذلك أخر عن الرحمن.

- **قال تعالى** : "الْحَمْدُ (٥) لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ". آية رقم ٢.

تحمل هذه الآية اسمى معانى الثناء على الله جل وعلا، واثبات الربوبية له سبحانه.

---

(١) انظر : قرطبى جـ١/ ١٠٥ ، وتفسير آيات الأحكام جـ١/ ٢٦ .

(٢) الإسراء ١١٠ .

(٣) الزخرف ٤٥ .

(٤) التوبة ١٢٨ وانظر المصدر السابق .

(٥) لفظ الحمد يدل على الجنس، والجنس من حيث هو إذا أطلق على الشئ أطلق على أن ذلك الشئ فى نهاية من الكمال فى بابه - انظر التبيان فى علم المعانى والبديع والبيان صـ١٠٢.

فعقب البدء بـ "بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ" يجئ التوجه إلى الله بالحمد، ووصفه بالربوبية المطلقة، وهذه هى الفنون البلاغية التي توضح هذه المعانى الكلية .

براعة الاستهلال(١): وهو من أرق فنون البلاغة وأرشقها .

وحده : أن يبتدئ المتكلم كلامه بما يشير إلى الغرض المقصود من غير تصريح بل إشارة لطيفة، وإيماءة بعيدة أو قريبة .

كما أشارت أم الكتاب، ببراعة الاستهلال في كلمة «الحمد» المحكوم عليه أنه لله، استهلال فى غاية الحسن والجمال، وأى شئ أولى بهذه البراعة من فاتحة الكتاب ؟

فالحمد قد قرن بما يثير فى النفس الحب والإجلال معاً، فالله المنعم بجليل النعم ودقيقها مالك يوم الدين ، يبعث فى النفس

---

(١) الاستهلال فى الأصل : هو رفع الصوت، وسمى الهلال هلالاً لأن الناس يرفعون أصواتهم عند رؤيته، ومن أمثلته فى الشعر قول أبى تمام فى مطلع قصيدته "فتح عمورية" :

السيد أصدق أنباء من الكتب فى حده الحد بين الجد واللعب

فقد استهل قصيدته بذكر السيف، وفيه إيماءة قريبة جداً إلى الموضوع الذى نظمت القصيدة بصدده، وقد اشتهر أبو الطيب المتنبى ببراعة مطالعه ومن روائعها قوله:

أتراها لكثرة العشاق تحسب الدمع خلقه فى المآقى

فقد ألمع إلى موضوع قصيدته، وهو الغزل برشاقة زادها ابتكار المعنى - فى حسبان الدمع خلقه فى المآقى - حسناً وجمالاً .

انظر إعراب القرآن الكريم وبيانه جـ١/١٨ .

الفرح عند انتهاجها الصراط المستقيم، بأنها ستكون مع الذين أنعم الله عليهم[١] .

- **تعريف المسند إليه بال** : جاء المسند إليه "الحمد" معرفاً بالألف واللام لغرض بلاغي وهو الإشارة إلى كل أفراد الحقيقة واستغراقها استغراقاً حقيقياً ، بحيث يراد كل فرد مما يتناوله اللفظ بحسب اللغة مما يدل على المبالغة في الثناء لأن حقيقة المحامد ثابتة لله تعالى، الموصوف بالصفات التالية الجارية على العموم، والمستدعية عموم الحكم المترتب عليها المعنى، من كان رباً للعالمين من الملائكة والثقلين وغيرهما مولياً للنعم كلها جلائلها ودقائقها ظاهرها وباطنها فكل الحمد لم يكن إلا له كما قال، وهذه الأوصاف التي أجريت على الله سبحانه وتعالى دليل علي أن من كانت هذه صفاته لم يكن أحد أحق بالحمد منه، ولله در القائل: قولك : "زيد حسن الوجه" وصف لزيد وحمد لباريه، إذ كل حسن صنيع جمال فطرته، وكل محسن رضيع لبان لنعمته[٢] .

- **التجريد**: وهو أن ينتزع من متصف بصفة آخر مثله فيها مبالغة في كمالها فيه .

ومن أغراضه البلاغية حكاية الله تعالى عن نفسه على لفظ الغيبة:

---

(١) انظر من بلاغة القرآن ص٤٠ .

(٢) انظر التبيان في علم المعاني والبديع والبيان ص٧٦ .

فى قوله تعالى : "الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ" إيذاناً منه أن الذى يستوجب الحمد هو الذى له هذه الصفات الفائقة، والفضائل النابهة ونحو هذا أدخل فى الإذعان ، وأسرع إلى القبول(١) .

- **وقوع الخبر موقع الإنشاء** : هذه ظاهرة بلاغية من خروج الكلام عن مقتضى الظاهر ، ليتنبه الذهن إلى مايلقى إليه، فجملة "الحمد لله" خبرية لفظاً إنشائية معنى، أى قولوا : الحمد لله .

وفائدة الجملة الاسمية ديمومة الحمد واستمراره وثبوته(٢).

- **القصر**: ففى قوله تعالي : "الحمد لله" إفادة لقصر الحمد عليه تعالى كقولهم : "الكرم فى العرب" (٣) .

مما يدل على أن جميع المحامد مختصة به سبحانه وتعالى(٤).

- **التغليب** : وهو ترجيح أحد المعلومين على الآخر ، وإطلاق لفظه عليهما .

---

(١) انظر المصدر السابق صـ٢٩٠ .

(٢) انظر إعراب القرآن الكريم وبيانه جـ١/ ٢٠ .

(٣) انظر صفوة التفاسير جـ١/ ١٢ .

(٤) يقول صاحب البحر المحيط: الاختصاص هنا باللام التى فى "لله" إذ دلت على أن جميع المحامد مختصة به تعالى، إذ هو مستحق لها جل وعلا. جـ١/ ٣١ .

فلفظ العالمين[١] يحتمل المعنيين إذا فسر العالم بكل ماعلم به الخالق .

يقول أبو السعود : العالم اسم لما يعلم به كالخاتم والقالب، غلب فيما يعلم به الصانع تبارك وتعالى من المصنوعات[٢] وبلاغة التغليب تكمن فى كونه ضرباً من المجاز، وأنه ينقل المعنى من لباس إلى لباس آخر لنكتة، وأنه يراعى فيه الأشرف.

فلفظ العالمين لم يستعمل فيما وضع له، فهو موضوع للعقلاء، فاطلاقه على العقلاء وغيرهم على غير ماوضع له[٣].

- الصفة : لفظة "رب" مشتقة من التربية، فهو سبحانه وتعالى مدبر لخلقه ومربيهم، وهى الصفة الأولى للفظ الجلالة، وبلاغتها فى المدح والثناء علي "الله" تكمن من معناها، فهى تطلق على معان كثيرة[٤].

---

(١) العالمين جمع عالم، والعالم اسم جنس لاواحد له من لفظه كالرهط والأنام . انظر روائع البيان فى تفسير آيات الأحكام للصابونى جـ١/٢٤.

(٢) انظر تفسير أبى السعود جـ١/١١٧ دار الفكر.

(٣) انظر سيلكوتى على المطول ٤٩٥ والبرهان في علوم القرآن جـ٣/٣١٢، وروح المعانى جـ١/٧٨ .

(٤) من معانى الرب المالك والمصلح والمعبود، والسيد المطاع، تقول: هذا رب الإبل ورب الدار أي مالكها ، والرب اسم من أسماء =

قال تعالى : "الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ" آية ٣ .

عقب الصفة الأولى للفظ الجلالة تأتى هذه الصفة التى تستغرق كل معانى الرحمة وحالاتها ومجالاتها تتكرر هنا فى صلب السورة فى آية مستقلة ، لتؤكد تلك الربوبية الشاملة، ولتثبت قوائم الصلة الدائمة بين الرب ومربوبيه وبين الخالق ومخلوقاته ... إنها صلة الرحمة والرعاية، التى تقوم علي الطمأنينة وتنبض بالمودة ، فالحمد هو الاستجابة الفطرية للرحمة الندية .

ومن الفنون البلاغية التى وضحت هذه المعانى فى الآية :

النعت : تضمنت هذه الآية صفتين لله تعالى تدلان على المدح والثناء، فالوصف هنا لم يذكر لتوضيح الموصوف وتمييزه عن غيره، فالله جل شأنه لامثل له حتى يكون الوصف لتمييزه عن

= الله تعالى ولايقال في غير الله إلا بالإضافة، ففى الحديث : لايقل أحدكم أطعم ربك، وضئ ربك، ولايقل أحدكم ربى، وليقل سيدى ومولاى، والرب المعبود ومنه قول الشاعر :

أرب يبول الثعلبان برأسه لقد ذل من بالت عليه الثعالب

والرب: السيد المطاع، ومنه قوله تعالى"فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْرًا" يوسف ٤١ أى سيده، والرب المصلح، ومنه قول الشاعر :

برب الذى يأتى من الخير إنه إذا سئل المعروف زاد وتمما

انظر تفسير القرطبى جـ١/١٣٧، وزاد المسير فى علم التفسير جـ١/١١ وروائع البيان فى تفسير آيات الأحكام جـ١/٢٤ .

سواء، وإنما جاءت الصفات لمجرد الثناء لله سبحانه وتعالى[١].

- التتميم: ومن الفنون البلاغية التى ساعدت على إبراز المعنى فى هذه الآية التتميم للمبالغة فإنه تعالى لما ذكر جلائل النعم وعظائمها أراد المبالغة فتمم بما دق منها[٢].

فالآية واضحة المعنى جلية القصد لاتستغلق على السامع، ولكن عمد إلى الإطناب فيها للمبالغة فى أداء المعنى الذى اقتضاه المقام.

التكميل: وهو أن يؤتى فى كلام يوهم خلاف المقصود بما يدفع ذلك الوهم.

والمقام اقتضاه فى الآية لأنه مركوز فى الجبلة أن عظائم النعم ليست إلا منه فلو اقتصر على الرحمن لاحتشم أن يطلب منه الشئ اليسير فكمل بالرحيم[٣].

- قال تعالى: "مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ" آية رقم (٤) هذه هى الصفة الرابعة التى تحمل معنى إثبات الملك والربوبية المطلقة لله مالك يوم الدين[٤].

---

(١) انظر فن البلاغة ص٢١١.

(٢) انظر التبيان فى علم المعانى والبديع والبيان ص٣٨٢.

(٣) انظر المصدر السابق نفس الصفحة، والاتقان فى علوم القرآن جـ٣/٢٢١، ٢٢٢.
احتشم بمعنى استحى «اللسان مادة حشم».

(٤) يوم الدين هو يوم القيامة وهو مبهم. انظر التحبير فى علم التفسير للسيوطى ص٤٣٣.

الإيمان بهذه الآية بمثل الكلمة الضخمة العميقة التأثير، كلمة الاعتقاد بالآخرة، والاعتقاد بيوم الدين، كلمة من كلمات العقيدة الإسلامية، ذات قيمة هامة فى تعليق أنظار البشر وقلوبهم بعالم آخر، وهو مفرق الطريق، بين الإنسانية فى مستواها العليا والصور المشوهة المنحرفة التى لم يقدر لها الكمال، وما تستقيم الحياة البشرية على منهج الله الرفيع مالم تتحقق هذه الكلمة فى تصوير البشر. ومالم يثق الفرد المحدود، بأن له حياة أخرى تستحق أن يجاهد لها وأن يضحى فى سبيلها، وما يستوى المؤمنون بالآخرة، والمنكرون لها فى شعور ولا خلق ولا سلوك ولا عمل.

فهما صنفان مختلفان فى الخلق وطبيعتان متميزتان لا تلتقيان فى الأرض فى عمل، ولا تلتقيان فى الآخرة فى جزاء... وهذا هو مفرق الطريق[1].

ومن النكات والفنون البلاغية التى ألمحت إلى هذه المعانى وأوضحتها ما يأتى:

الاختصاص: فى قوله سبحانه وتعالى: "مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ" فن الاختصاص بالإضافة، وثمرته البلاغية زوال المالكين والأملاك عن سواه فى ذلك اليوم[2].

---

(١) انظر فى ظلال القرآن جـ١/٢٤.

(٢) انظر إعراب القرآن الكريم وبيانه جـ١/١٦.

- **الصفة** : مالك صفة رابعة للفظ الجلالة "الله" غرضها البلاغى الثناء على الله سبحانه وتعالى، وبيان عظمة قدرته :

- **الفاصلة** [١]: بين قوله تعالى : "الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ" و"مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ" فاصلتان متقاربتان .

ويسمى العلماء الفواصل المتفقة فى الحرف الأخير متماثلة، وماعداها متقاربة ، ولاتخرج الفواصل عن هذين النوعين أبداً [٢] .

---

(١) تسمى فواصل لأنه ينفصل عندها الكلامان، وذلك أن آخر الآية فصل بينها وبين مابعدها ، ولقوله تعالى "كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ" فصلت٣، وانظر البرهان فى علوم القرآن جـ١/٥٤ .

(٢) يقول الزركشى: إن الفواصل تنقسم إلى ماتماثلت حروفه فى المقاطع - وهذا يكون فى السجع - وإلى ماتقاربت حروفه فى المقاطع ولم تتماثل، وهذا لايكون سجعاً. ويمثل للمتماثل بقوله تعالى: وَالطُّورِ وَكِتَابٍ مَسْطُورٍ فِي رَقٍّ مَنْشُورٍ وللمتقارب بقوله تعالى: الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ" ثم يقول: إذا علمت هذا فاعلم أن فواصل القرآن الكريم لاتخرج عن هذين القسمين بل تنحصر فى المماثلة والمقاربة، وبهذا يترجح مذهب الشافعى على مذهب أبى حنيفة فى عد الفاتحة سبع آيات مع البسملة، وذلك لأن الشافعى المثبت لها فى القرآن ، قال: صِرَاطَ الَّذِينَ ... إلخ السورة آية واحدة وأبوحنيفة لما أسقط البسملة من الفاتحة قال: صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ "آية" و"غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ "آية" ومذهب الشافعى أولى، لأن فاصلة قوله "صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ "لاتشابه فاصلة الآيات المتقدمة، =

ومكانة الفاصلة من الآية ، مكانة القافية من البيت[1] ، إذ تصبح الآية لبنة متميزة فى بناء هيكل السورة، وتنزل الفاصلة

ورعاية التشابه فى الفواصل لازم... وقوله "أَنعَمتَ عَلَيهِمْ" ليست من القسمين ، فامتنع جعله من المقاطع، وقد اتفق الجميع على أن الفاتحة سبع آيات، لكن الخلاف فى كيفية العدد .

انظر البرهان فى علوم القرآن جـ١/ ٧٥ .

ويقول أبو عمرو الدانى : الوقف على "مَالِكِ يَومِ الدِّينِ تام لأن مابعده مستغنى عنه ، وعلي "إِيَّاكَ نَستَعِينُ"، تام، لأنه انقضاء الثناء على الله عز وجل، وعلى "أنعمت عليهم" حسن وليس بتام ولاكاف سواء قرأ غَيرِ المَغضُوبِ عَلَيهِمْ بالخفض على النعت للذين فى قوله "صِرَاطَ الَّذِينَ أو علي البدل منه أو قرأ ذلك بالنصب علي الحال لتقدير مغضوباً عليهم، فلايقطع منه إلا على غير الاختيار والوقف على "ولا الضالين تام، وإن وقف على رأس كل آية من هذه السورة، على مراد التقطيع والترتيل فحسن، وقد وردت السنة بذلك عن رسول الله، فعن أم سلمة أن النبي صلى الله عليه وسلم كان إذا قرأ قطع قراءته آية آية يقول: بِسمِ اللَّهِ الرَّحمَنِ الرَّحِيمِ، ثم يقف، ثم يقول "الحَمدُ لِلَّهِ رَبِّ العَالَمِينَ، ثم يقف، ثم يقول "الرَّحمَنِ الرَّحِيمِ مَالِكِ يَومِ الدِّينِ . انظر المكتفى فى الوقف والابتداء صـ١١٦ .

(١) يقول السيوطى : لايجوز تسمية الفواصل قوافى إجماعاً، لأن الله تعالى لما سلب عنه اسم الشعر وجب سلب القافية عنه أيضاً، لأنها منه، وخاصة فى الإصطلاح، وكما يمتنع استعمال القافية فيه يمتنع استعمال الفاصلة فى الشعر ، لأنها صفة لكتاب الله تعالى فلا تتعداه . انظر الإتقان فى علوم القرآن جـ٣/ ٢٩٢ .

من أبنيتها، تكمل من معناها، ويتم بها النغم الموسيقى للآية، فتراها أكثر ما تنتهى بالنون والميم، وحروف المد، وتلك هى الحروف الطبيعية فى الموسيقى نفسها.

- قال سيبويه: إن العرب إذا ترنموا يلحقون الألف والياء والنون لأنهم أرادوا مد الصوت، ويتركون ذلك إلا لم يترنموا(١).

وتأتى الفاصلة فى القرآن مستقرة فى قرارها، مطمئنة فى موضعها، غير نافرة ولاقلقة، يتعلق معناها بمعنى الآية كلها تعلقاً تاماً بحيث لو طرحت لاختل المعنى واضطرب الفهم، فهى تؤدي فى مكانها جزءاً من معنى الآية، ينقص ويختل بنقصانها.

وقد يشتد تمكن الفاصلة فى مكانها حتى لتوحى الآيات بها قبل نطقها كما روى عن زيد بن ثابت أنه قال: أملى على رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الآية «وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ من طين ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ، ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطفَةَ عَلَقَةً، فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً، فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَاماً فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْماً، ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقاً آخَرَ» وهنا قال معاذ ابن جبل "فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ" فضحك النبى صلى الله عليه سلم فقال له معاذ: مم ضحكت يارسول الله؟ قال: بها ختمت(٢).

---

(١) انظر الكتاب لسيبويه جـ٢/٢٩٨ باب وجوه القوافى فى الإنشاد.

(٢) المؤمنون: ١٢: ١٤ وانظر الإتقان فى علوم القرآن جـ٣/٣٠٣.

قال تعالى : "إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ" آية رقم ٥

هذه هى الكلية الاعتقادية التى تنشأ عن الكليات السابقة فى الصورة، فلا عبادة إلا لله ولاستعانة إلا بالله .

والفنون البلاغية الآتية تفسر ماتحمله الآية من معان سامية .

تقديم المفعول : أفاد التقديم هنا "القصر" والأصل: نعبدك ونستعين بك، فقدم المفعول به هنا لأجل الاختصاص لأنه موضع عناية العابد ورجاء المستعين فلا جرم، وهو مناط الاهتمام أن يتقدم كما يتقدم كل مايهتم به ويعنى .

والمعنى: نخصك بالعبادة ، ونخصك بطلب المعونة دون سواك فالآية من قصر الصفة على الموصوف قصراً حقيقياً وعن بلاغة التقديم يقول عبد القاهر الجرجانى :

إنه باب كثير الفوائد ، جم المحاسن، واسع التصرف بعيد الغاية... ولاتزال ترى شعراً يروقك مسمعه ويلطف لديه موقعه، ثم تنظر فتجد سبب أن راقك، ولطف عندك، أن قدم فيه شئ وحول اللفظ عن مكان إلى مكان[1] .

- **يقول ابن القيم فى الكشف عن بيان السر فى التقديم والتأخير فى هذه الآية :**

وهما الكلمتان المقسومتان بين الرب وبين عبده نصفين، فنصفهما له تعالى وهو «إِيَّاكَ نَعْبُدُ» ونصفهما لعبده ، وهو

---

(١) انظر دلائل الإعجاز ٨٣ .

«إِيَّاكَ نَسْتَعِينُ» وتقديم "العبادة" على "الاستعانة" فى الفاتحة من باب تقديم الغايات على الوسائل إذ العبادة غاية العباد التى خلقوا لها والاستعانة وسيلة إليها . ولأن إِيَّاكَ نَعْبُدُ، متعلق بألوهيته واسمه "الله" و "إِيَّاكَ نَسْتَعِينُ، متعلق بربوبيته واسمه "الرب" فقدم "إِيَّاكَ نَعْبُدُ "على" إِيَّاكَ نَسْتَعِينُ" كما تقدم اسم "الله" على "الرب" فى أول السورة .

ولأن "إِيَّاكَ نَعْبُدُ" قسم الرب، فكان من الشطر الأول، الذى هو ثناء على الله تعالى لكونه أولى به، و"إِيَّاكَ نَسْتَعِينُ" قسم العبد فكان مع الشطر الذى له ، وهو "اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ إلى آخر السورة. وأما تقديم "المعبود والمستعان "على" الفعلين فيه "ففيه أدبهم مع الله بتقديم اسمه على فعلهم ، وفيه الإيذان بالاختصاص المسمى بالحصر فهو فى قوة :: لانعبد إلا إياك ولانستعين إلا بك... وتأمل قوله تعالي "وَإِيَّايَ فَارْهَبُونَ"(١).

وقوله تعالى "وَإِيَّايَ فَاتَّقُونَ"(٢) كيف تجده فى قوة : لاترهبون غيرى، ولاتتقون سواى ؟

وكذلك: "إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ" هو فى قوة قولك : لانعبد غيرك ولانستعين بسواك . وكل ذى ذوق سليم يفهم هذا الاختصاص من السياق .

وفى إعادة إياك مرة أخرى، دلالة على تعلق هذه الأمور بكل واحد من الفعلين، ففى إعادة الضمير من قوة الاقتضاء لذلك

(١، ٢) البقرة ٤٠، ٤١ .

ماليس فى حذفه، فإذا قلت لملك مثلاً: إياك أحب، وإياك أخاف، كان فيه من اختصاص الحب، والخوف بذاته والاهتمام بذكره ماليس فى قولك: إياك أحب وأخاف(١) .

ومن الأسرار البلاغية للتقديم والتأخير فى هذه الآية أيضاً :

تقديم : فقد قدم الضمير لحصر العبادة والاستعانة بالله وحده، وقدمت العبادة على الاستعانة، لأن الاستعانة ثمرتها، وإعادة إياك مع الفعل الثانى تفيد أن كلاً من العبادة والاستعانة مقصور بالذات، فلا يستلزم كل منهما الآخر ولأن الكاف التى مع "إيّا" هى الكاف التي كانت تتصل بالفعل أعنى بقوله "نعبد" لو كانت مؤخرة بعد الفعل ، وهى كناية عن اسم المخاطب المنصوب بالفعل ، فكثّرت بإيّا متقدمة وكان الأفصح إعادتها مع كل فعل(٢) .

وضع الجمع موضع المفرد : ظاهرة بلاغية من خروج الكلام عن مقتضى الظاهر، لاقتضاء المقام ذلك، وهو الاعتراف بقصور العبد عن الوقوف فى باب ملك الملوك، فكأنه يقول :أنا يارب العبد الحقير الذليل، لايليق بى أن أقف هذا الموقف فى مناجاتك بمفردى ، بل أنضم إلى سلك المؤمنين الموحدين فتقبل دعائى فى زمرتهم، فنحن جميعاً نعبدك ونستعين بك .

---

(١) انظر التفسير القيم ٦٥ - ٦٩ وابن القيم وحسه البلاغى ص١٢٢.

(٢) انظر إعراب القرآن الكريم وبيانه جـ١/١٦ .

أوحت هذه الظاهرة بإبداع المفسرين فى تفسيرها، يقول صاحب أعراب القرآن الكريم وبيانه :

أتى بنون الجمع فى قوله : "نعبد" و "نستعين" والمتكلم واحد لأنه ورد فى الشريعة أنه من باع أجناساً مختلفة صفقة واحدة ثم ظهر للمشترى فى بعضها عيب فهو مخير بين رد الجميع أو إمساكه، وليس له تبعيض الصفقة، برد المعيب وإبقاء السليم، وهنا لما رأى العابد أن عبادته ناقصة معيبة لم يعرضها على الله مفردة بل جنح إلى ضم عبادة جميع العابدين إليها، وعرض الجميع صفقة كاملة راجياً قبول عبادته فى ضمنها، لأن الجميع لايرد البتة، إذ بعضه مقبول ، ورد المعيب وإبقاء السليم تبعيض للصفقة وقد نهى سبحانه عباده عنه، وهو لايليق بكرمه العظيم وفضله العميم، فبقى قبول الجميع[1] .

الالتفات : هذا الفن ليس لمجرد الاتساع فى اللغة أو التصرف فى اللفظ ، بل لأمر أعلى وغرض أسمى إذ فيه مراعاة الأدب فى الخطاب والسلوك الحميد فى طريقة التعبير وتجاذب أطراف الحديث، وبصفة خاصة إذا أريد تبجيل المخاطب لرفعة شأنه وعلو قدره، كما فى فاتحة الكتاب فإن العبد إذا افتتح حمد مولاه بقوله "الْحَمْدُ لِلَّهِ" الدال على اختصاصه بالحمد وجد من نفسه التحرك للإقبال عليه سبحانه ، فإذا انتقل إلى قوله "رب

---

(١) انظر إعراب القرآن الكريم وبيانه جـ١/١٧ .

الْعَالَمِينَ" الدال على ربوبيته لجميعهم قوى تحركه ، فإذا قال "الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ" الدال على أنه منعم بأنواع النعم جليلها وحقيرها ، تزايد التحرك عنده ، فإذا وصل لـ"مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ" وهو خاتمة الصفات الدالة علي أنه مالك الأمر يوم الجزاء ، فيتأهب قربه ، ويتيقن الإقبال عليه ، بتخصيصيه بغاية الخضوع والاستعانة فى المهمات فخوطب ذلك المعلوم المتميز بتلك الصفات ، فقيل "إياك" يامن هذه صفاته نخص بالعبادة والاستعانة ، لانعبد غيرك ولانستعينه ليكون الخطاب أدل على أن العبادة له ، لذلك التميز الذى لاتحق العبادة إلا به(١).

والالتفات من الغيبة فى قوله : الْحَمْدُ لِلَّهِ... إلى الخطاب فى قوله: إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ من أسراره أيضاً أن العبد إذا قدر مثوله بين يدى مولاه من حقه أن يكون حاضرالقلب يقظان النفس دراك اللمحة سيما إذا افتتح بالتحميد ، يستحضر سبوغ نعمائه جلائلها ودقائقها فإذا انتقل منه إلى اسم الذات ، يستجد لنفسه هيبة الجلال والكبرياء ، ثم إذا انتقل منه إلى معنى الربوبية والمالكية يستزيد المحرك وإذا ارتقى منه إلى كونه شامل الرحمة دنياها وعقباها يتضاعف المحرك ، ثم إذا آل الأمر إلى أنه مالك الأمور فى العاقبة ثوابها وعقابها يصير

---

(١) انظر البرهان فى علوم القرآن جـ٣/٣٢٦ ، والكشاف جـ١/٦٤ ، ٦٥ والتفسير الكبير جـ١/١٩٧ .

ذلك المحرك إلى حد لايتمالك معه إلا أن يقبل إلى معبوده ومعينه الحاضر المشاهد، ويقول "إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ"(١).

المطلب(٢): هذه ظاهرة بلاغية ساعدت فى استكشاف بلاغة القرآن وتذوق جماليات الكلام وحسنها يكمن فى أن تخرج إلى الغرض بعد تقدم الوسيلة كما فى قوله سبحانه وتعالى على لسان المؤمنين "إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ".

وقوع الخبر موقع الإنشاء:

هذا فن يدل على تأكيد الكلام والإشعار بأنه من الأهمية بمكان.

---

(١) قال الزمخشرى فى الكشاف جـ١/ ٦٠ إيا ضمير منفصل للمنصوب واللواحق التى تلحقه من الكاف والهاء والياء فى قولك إياك وإياه وإياى، لبيان الخطاب والغيبة والتكلم وقال فيه: يسمى الالتفات فى علم البيان، قد يكون من الغيبة إلى الخطاب ومن الخطاب إلى الغيبة ومن الغيبة إلى التكلم كقوله تعالى: حَتَّى إِذَا كُنتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم" يونس ٢٢، وقوله تعالى "وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَاباً فَسُقْنَاهُ" فاطر رقم ٩ وانظر رأى الزمخشرى فى الالتفات الذى أثبته العلوى فى الطراز جـ٢/ ١٣٣ وذكره القزوينى فى الإيضاح جـ١/ ٧٣.

(٢) المطلب موضع من مواضع حسن ملاءمة الكلام الذى ينبغى للمتكلم أن يتأنق فيما يورده من كلامه حتى يكون حسن السبك عذب اللفظ بديع المعنى. انظر التبيان فى علم المعانى والبديع والبيان ص٤٥٥.

يقول ابن فارس: والمعانى التى يحتملها لفظ الخبر كثيرة منها الدعاء والطلب كما فى قوله تعالى: "إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ" معناها: فأعنا على عبادتك، ويقول القائل "أستغفر الله" والمعنى أغفر (١).

قال تعالى: اهدِنَا الصِّرَاطَ المُسْتَقِيمَ: "آية رقم ٦" هذه الآية يحمل معناها طلب الهداية والثبات على الإيمان فالمعرفة والاستقامة كلتاهما ثمرة لهداية الله ورعايته ورحمته وهو ثمرة الاعتقاد بأنه وحده المعين، وهذا الأمر أعظم مايطلبه المؤمن من ربه، فالهداية فطرة الإنسان إلى ناموس الله الذى ينسق بين حركة الإنسان وحركة الوجود كله فى الاتجاه إلى رب العالمين.

ومن الفنون البلاغية التى صورت واستشعرت هذه المعانى

ـــى:

لأمر: خرج الأمر عن معناه الحقيقى الذى هو طلب الفعل على سبيل

لإيجاب إلى:

- الثبات على الفعل والزيادة منه، لاقتضاء الحال إياه:

فقد يقال: إن المؤمنين مهتدون فما معنى طلبها؟ والجواب: إن المطلوب هو الثبات على الهدى، أو زيادته، وليس فى كون بعض الناس لم يهتدوا مايخرجه عن أن يكون هدى، فالشمس شمس وإن لم يرها الضرير، والعسل عسل وإن لم يجد طعمه

---

(١) انظر الصاحبى ص ١٥٠.

المرور، فالخيبة كل الخيبة لمن عطش والماء زاخر، ولمن بقي في الظلمة والبدر زاهر، وخبث والطيب حاضر (١) .

ب - الدعاء :

الأمر في هذا التركيب القرآني الكريم المراد منه أيضا التضرع إلى الله والتوجه إليه والدعاء له، لأن الله جل وعلا لا يأمره أحد من خلقه .

وسر التعبير بأسلوب الأمر في مقام الدعاء، هو إظهار كمال الخضوع والتضرع لله عز وجل، وبيان شدة الرغبة في تحقيق الفعل ، حتى كأنه أمر مطلوب من الله جل جلاله .

يقول الخطيب القزويني : إذا استعملت في طلب الفعل على سبيل التضرع (٢) .

- المجاز : "الصراط" في أصل اللغة اسم للطريق ... وهو هنا كناية عن الدين، لأن الدين مؤد إلى استيجاب الثواب واستدفاع العقاب، فهو كالنهج المسلوك إلى مظنة النجاة والسلامة ودار الأمن والإقامة، ولما جعل سبحانه الدين كالطريق القاصد والمنهج الواضح أقام إرشاده إليه، ودلالته عليه، مقام

---

(١) انظر إعراب القرآن الكريم وبيانه جـ١/ ٢٠ والتبيان في علم المعاني والبديع والبيان ص١٧٢ .

(٢) انظر الإيضاح ١٤٥ وعروس الأفراح ٢/ ٣٢٠ .

الدليل ، يدل على السمت[١] والهادى الذى يهدى إلى القصد، فقال سبحانه: "اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ"[٢] .

وهذه استعارة تصريحية تحقيقية[٣] على هذا التأويل وإجراؤها كما يلى:

شبه الدين الحق بالصراط المستقيم ، الذى ليس به أدق انحراف قد يخرجه عن حدود الاستقامة لأن الخط المستقيم هو أقصر بعد بين نقطتين ، ووجه الشبه بينهما ، أن الله سبحانه وإن كان متعالياً عن الأمكنة، لكن العبد الطالب الوصول لابد له من قطع المسافات ومس الآفات، ليكرم الوصول والموافاة .

التأويل **الثانى فى الصراط** : يخرج الكلام عن حيز الاستعارة وهو أن يكون المراد به المجاز المسلوك إلى الجنة والنار على ماجاءت به الأخبار، فكأنهم سألوه سبحانه توفيقهم منجاته ومأمنه والعدول بهم عن مشاقه ومخافته[٤] .

---

(١) من سمت : لزم السمت أى الطريق، سار على الطريق بالظن، ومنه قوله : وهن إلى البيت سوامت : أى قواصد، اللسان مادة "سمت" .

(٢) انظر تلخيص البيان فى مجازات القرآن ص٢٧ .

(٣) التحقيق "هوالمشبه المتروك" ضربان : محسوس ومعقول والمتروك هنا شئ معقول وهو دين الإسلام .

(٤) فى الصراط أربع لغات : السراط بالسين من سرت الشئ" إذا بلعه ويسمى الطريق سراطاً لجريان الناس فيه كما يجرى الشئ ==

- **الإيجاز:** من بلاغة هذه الآية الإيجاز بالحذف، حيث إن "هدى" لاتتعدى إلا إلى مفعول واحد، وتتعدى إلى الثانى باللام، كقوله تعالى: "يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ"(١) أو بإلى كقوله تعالى: "وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ"(٢) فالمراد: اهدنا إلى الصراط المستقيم(٣).

- **الوصف:** المستقيم صفة للصراط، وجاء الوصف هنا لغرض بلاغى - اقتضاه المقام - يفوق مجرد إيصال المعنى إلى ذهن السامع وهو الكشف والتوضيح للصراط ومدحه.

- **قال تعالى: «صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ»** آية رقم ٧.

كشفت هذه الآية عن طبيعة هذا الصراط المستقيم وحملت الأخبار عن قصص الأمم السابقين، وأطلعتنا على معارج السعداء ومنازل الأشقياء الذاهبين عن سنن القصد وطريق الحق المبين.

= المبتلع، والصراط، وبالزاى خالصة الزراط وبإشمام الصاد الزاى، وكل هذه اللغات قد قرئ بها ويذكر ويونث وتذكيره أكثر. المصدر السابق جـ١/٢٧.

(١) الإسراء ٩. المفعول الأول محذوف تقديره «الناس».

(٢) الشورى ٥٢، وانظر إعراب القرآن الكريم وبيانه جـ١/١٥. المفعول الأول محذوف تقديره «كل إنسان مكلف».

(٣) الإيجاز بالحذف فى الآية على أن الصراط منصوب بنزع الخافض.

ومن الفنون البلاغية التى أوضحت وفصلت ما تحمله الآية الكريمة من معان يستشعرها صاحب الإيمان العميق :

البدل : وقيمته البلاغية تكمن فى الإيضاح بعد الإبهام والتوكيد بعد الإخبار، وإلى هذه القيمة أشار سيبويه بقوله : "البدل يأتى للتوكيد والتبيين" (١) .

وقد تحققت هذه القيمة فى قوله تعالى : "اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ" فصراط المنعم عليهم هو الصراط المستقيم وبيان له، فإنه أبدل ليكون شهادة الصراط بالاستقامة على أبلغ وجه، لأنه إذا طرق السمع مبهماً ثم أعقب بالتفسير تمكن عنده أفضل تمكن كأنه تعالى قال : من أراد طريقاً جامعاً لأنواع الخير، فعليه بصراط المنعم عليهم، فإنه العلم المشار إليه المتعين لذلك من غير مدافع ولامنازع .

- الذكر : ذكر المسند إليه فى قوله تعالى "أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ ... دون الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ، لأسرار بلاغية منها :

١ - أن النعمة هى الخير والفضل، والغضب من باب الانتقام والعدل، والرحمة تغلب الغضب فأضاف إلى نفسه أكمل الأمرين وأسبقهما وأقواهما .

٢ - أن الله سبحانه وتعالى هو المنفرد بالنعم "وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ" (٢)، فأضيف إليه ماهو منفرد به، وإن أضيف إلى

---

(١) الكتاب جـ٢/ ٧٥ .

(٢) النحل ٥٣ .

غيره فلكونه طريقاً ومجرى للنعمة، وأما الغضب على أعدائه، فلا يختص به تعالى بل ملائكته وأنبياؤه ورسله وأولياؤه يغضبون لغضبه، فكان فى لفظة "أنعمت عليهم" من الدلالة على تفرده بالأنعام، وأن النعمة المطلقة منه وحده، هو المنفرد، بها ماليس فى لفظة «المنعم عليهم» .

٣ - أن فى ذكر المسند إليه محكوماً عليه بالمسند ، والمسند صفة كمال وجمال، فأولى أن تنسب إليه سبحانه وتعالى:

- **الحذف** : يقول عنه عبد القاهر : هو باب دقيق المسلك لطيف المأخذ ، عجيب الأمر، شبيه بالسحر، فإنك ترى به ترك الذكر أفصح من الذكر، والصمت عن الإفادة أزيد للإفادة وتجدك أنطق ماتكون إذا لم تنطق ، وأتم ماتكون بياناً إذا لم تبن[1].

ومن بلاغته هذه :

١ - **حذف صراط:** من قوله تعالى : "غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ" .

تقديره : غير صراط المغضوب عليهم، وغير صراط الضالين، لعدم الإطالة والتكرار فى الكلام بدون فائدة .

٢ - **ترك مفعول المسند فى قوله تعالى:** "أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ" ويجعل كناية عن متعديه، والأصل: أنعمت عليهم بالإسلام بشهادة القرائن فأطلق ليشمل كل إنعام، ثم كنى به عن المقيد ليؤذن بأن نعمة الإسلام مشتملة على جميع النعم[2] .

---

(١) انظر دلائل الإعجاز ١٧٠ .

(٢) انظر التبيان فى علم المعانى والبديع والبيان ص١٠٧ .

- فى إضمار الفاعل غرض بلاغي هو : أن الفعل مما يتنزه عنه كما فى قوله تعالي : "غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ .

- فى حذف فاعل الغضب فى هذا القول الكريم من الإشعار بإهانة المغضوب عليه وتحقيره، وتصغير شأنه ماليس فى ذكر فاعل النعمة من إكرام المنعم عليه والإشادة بذكره ورفع قدره .

- فى بناء الفعل للمفعول وحذف الفاعل : فى هذا القول الكريم أيضاً مايفيد أن صفة الغضب بعيدة عن الكمال والجمال فلم تضف إليه سبحانه وتعالى وإسناد أكمل الأمرين إلى الله تعالى هى طريقة القرآن الكريم .

- يقول ابن القيم : قد تأدب الخضر عليه السلام بهذا الأدب العالى، فحكي القرآن عنه ذلك حيث أضاف عيب السفينة إلى نفسه، وإرادة ذلك إليه فقال: "فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا" (١).

ولم ينسب ذلك إليه تعالى مع أن الله تعالي هو الذى أمره بذلك وألهمه إياه كما قال بعد ذلك "وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي" (٢) أى ماكان من خرق السفينة وقتل الغلام وإقامة الجدار، كان بإلهام من الله، ولكن الخضر عليه السلام لم يضف ذلك إلى الله تأدباً منه فى الخطاب ولطفاً فى الحديث .

---

(١) الكهف ٧٩ .

(٢) الكهف ٨٢ .

ثم يستطرد فيقول: إذا عرفت هذا، عرف معنى قوله صلى الله عليه وسلم فى الحديث الصحيح : لبيك وسعديك والخير فى يديك والشر ليس إليك" وأن معناه أجل وأعظم من قول من قال: والشر لايتقرب به إليك، وقول من قال : والشر لايصعد إليك وأن هذا الذى قالوه وإن تضمن تنزيهه عن صعود الشر إليه والتقرب به إليه، فلا يتضمن تنزيهه في ذاته وصفاته وأفعاله عن الشر، بخلاف لفظ المعصوم الصادق المصدوق، فإنه يتضمن تنزيهه فى ذاته تبارك وتعالى عن نسبة الشر إليه بوجه "ما" لا فى صفاته ولافى أفعاله ولا فى أسمائه، وإن دخل فى مخلوقاته كقوله "قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ"(١) هذه طريقة القرآن فى إسناد الخيرات والنعم إليه وحذف الفاعل فى مقابلتهما (٢) .

- **التوكيد** : فى توكيد الضَّالِّينَ بـ "لا" مايفيد تأكيد معنى النفى ، وهو مافى "غير" من معنى النفى .

فالنفى بلا يمتد امتداد لفظها ، حيث إن امتداد لفظها يؤذن بامتداد معناها .

يقول ابن القيم فى خلال تفسيره لسورة "الكافرون" "قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُمْ وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ .

---

(١) الفلق ١، ٢ .

(٢) انظر بدائع الفوائد جـ٢/٢١٤، والتفسير القيم ١٢، ١٣ .

النفى فى هذه السورة أتى بأداة "لا" دون "لن" لأن النفى بـ "لا" أبلغ منه بـ"لن" وأنهـــا أدل على دوام النفى وطوله من "لن" وأنها للطول والمد الذى فى لفظها طال النفى بها واشتد[١] .

الحذف للتعظيم : من تعظيم الله تعالى ترك مخاطبته بإسناد الغضب إليه والإضلال[١] .

الالتفات : لما كانت هذه الظاهرة البلاغيـة تدور فى علوم البلاغة الثلاثة المعانى والبيان والبديـع .

فهو من حيث إنه يشتمل على نكتة هى خاصية التركيب ، فهو من علم المعـانى ومن حيث إنه إيراد المعنى الواحـد فى طرق مختلفة فى الوضوح والخفاء فهو من علم البيان ومن حيث إنه يزين الكلام ويحسنه فهو من علم البديع .

والسكاكى أورده في المعانى والبديع[٣] .

فيجدر القول بنا أن نبين كل مايحمله الالتفات من إيحاءات ومعان مختلفة يوحى بها فى سورة الفاتحة .

١ - يقول ابن جنى: القرآن قد عبر أولاً عن لفظ الجلالة بأسلوب الغائب فيقول : "الْحَمْدُ لِلَّهِ" ثم عبر ثانياً بأسلوب الخطاب فيقول : "إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ" .

---

(١) انظر بدائع الفوائد جـ١/٩٦ .

(٢) من بلاغة القرآن ص١٠٨ .

(٣) انظر البيان عند الشهاب جـ٢/٥١٥ وحاشية السيد على المطول ١٣٠ والمفتاح ص١٩٩، ٤٢٩ .

ثم يذكر ابن جنى الفائدة البلاغية من وراء ذلك فيقول: وترك أسلوب الغائب إلى أسلوب الخطاب ليس لمجرد الاتساع فى اللغة أو التصرف فى اللفظ بل لأمر أعلى، وغرض أسمى وذلك أن الحمد أقل درجة من العبادة ، فالإنسان يحمد نظيره ولا يعبده ، لأن العبادة قمة الطاعة والتقرب بها غاية النهاية ولذلك استعمل القرآن لفظ "الحمد" وهو الأقل درجة مع الغائب فقال "الْحَمْدُ لِلَّهِ "ولم يقل" الحمد لك" .

وفى مجال التقرب إلى الله بالعبادة التى تعتبر قمة الطاعة، استعمل لفظ العبادة مع المخاطب فقال "إياك نعبد، ولم يقل "الله نعبد" ، وآخر السورة يجرى على هذا النمط أيضاً، فالله يقول "صِرَاطَ الَّذِينَ أَنعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ" ولم يقل "غير الذين غضبت عليهم" .

كما قال: "الَّذِينَ أَنعَمْتَ عَلَيْهِمْ" لأن ذكر النعمة موضع تقرب إلى الله فصرح بالخطاب، ولما صار الكلام إلى ذكر الغضب أبعد عنه ذلك اللفظ ترفقاً وتلطفاً[1].

٢ - **يقول الزركشى :** فى فائدة هذه الظاهرة البلاغية:

ومن فوائد الالتفات تكراره فى موضع واحد كما فى الفاتحة فإن من أولها إلى قوله تعالى مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ "أسلوب غيبة ثم التفت بقوله : إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ" إلى أسلوب خطاب

---

(١) انظر المحتسب جـ١/٤٦، والجامع لابن الأثير ٩٩ وفن البلاغة ٢٨٠.

وفى قوله "أنعمت عليهم" ثم التفت إلى الغيبة بقوله "غير المغضوب عليهم" ولم يقل الذين غضبت كما قال أنعمت عليهم"

وانتقال القرآن من الخطاب إلى الغيبة، مصرحاً بذلك المنعم، وإسناد الإنعام إليه لفظاً، ولم يقل "صراط المنعم عليهم" فلما صار إلى ذكر الغضب، زوى عنه لفظه ، فلم ينسب إليه لفظاً، وجاء باللفظ منحرفاً عن ذكر الغاضب، فلم يقل : "غير الذين غضبت عليهم "تفادياً عن نسبة الغضب إليه فى اللفظ حال المواجهة، وفى هذا الالتفات تعظيم لشأن المخاطب، لأن مخاطبة الرب تبارك وتعالى بإسناد النعمة إليه تعظيم لخطابه وكذلك ترك مخاطبته بإسناد الغضب إليه تعظيم لخطابه[1].

٢- الالتفات يساعد على إبراز المعنى وتمكنه فى النفس بتغيير اتجاه الجملة تبعاً لتغيير الاتجاه النفسى، ففاتحة الكتاب قد تلون فيها الحديث، وتغير اتجاه الجملة فكان حديثاً عن الله المستحق للحمد، وكان التصريح باسمه وصفاته مؤذناً بأنه أهل للحمد والثناء، فإذا كان المقام مقام العبادة والاستعانة، تحولت الجملة إلى الخطاب إيذاناً بقربك ممن تحمد قرباً قلبياً، ويسمح لك الشعور بهذا القرب أن تطلب منه العون والمساعدة، ويستمر الخطاب فى الجمل إلى «اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ صِرَاطَ

---

(١) انظر البرهان فى علوم القرآن جـ٣/٣٢٢، والمثل السائر جـ٢/١٧١، والأقصى القريب ٤٤، وأنوار الربيع جـ١/٣٦٣ .

أَلَّذِينَ أَنعَمْتَ عَلَيْهِمْ»، حتى إذا جاء دور المغضوب عليهم، تحول الأسلوب مرة أخرى، فمن تعظيم الله ترك مخاطبته بإسناد الغضب إليه والإضلال(١).

٤ - الالتفات فى هذه السورة من أغراضه التطرية لنشاط الذهن جرياً على أساليبهم، ولأنه لما أثنى على الله بما هو أهل له وأجرى عليه تلك الصفات العظيمة ساغ له أن يطلب الاستعانة منه بعد أن مهد لذلك بما يبرر المطالبه وهو تعالى، خليق بالاستجابة، وللإشعار بأن أولى مايلجأ إليه العباد لطلب مايحتاجون إليه هو عبادته تعالى، والاعتراف له بصفات الألوهية البالغة وقال «صِرَاطَ الَّذِينَ أَنعَمْتَ عَلَيْهِمْ» فأصرح الخطاب لما ذكر النعمة ثم قال: غير المغضوب عليهم «فنزوى لفظ الغضب عنه تحنناً ولطفاً وهذا غاية مايصل إليه البيان، وهذه مراتب الالتفات فى هذه السورة :

أ - عدل عن الغيبة إلى الخطاب بقوله : إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ" بعد قوله "الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ" لأن الحمد دون العبادة فى المرتبة، ألا تراك تحمد نظيرك ولاتعبده، فلما كانت الحال بهذه المثابة استعمل لفظ الحمد لتوسطه مع الغيبية فى الخبر ولم يقل الحمد لك .

---

(١) انظر من بلاغة القرآن ص١٠٨ .

[illegible] إلى العبادة وهي قصارى الطاعات قال: إِيَّاكَ نَعْبُدُ
[illegible] والانتهاء إلى عبده محموده منها.
[illegible] يعود من ذلك جاء آخر السورة فقال: «صِرَاطَ الَّذِينَ
[illegible] عَلَيْهِمْ» فأصرح الخطاب لما ذكر النعمة، ثم قال: غَيْرِ
[illegible] عَلَيْهِمْ» عطفاً على الأول لأن الأول موضع التقرب
[illegible] الله وذكر نعمه وآلائه، فلما صار إلى ذكر الغضب جاء
[illegible] منحرفاً عن ذكر الغاضب، وأسند إليه النعمة لفظاً
[illegible] عنه لفظ الغضب تحننا ولطفاً[1].

السجع: في قوله تعالى: «الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ.... الصِّرَاطَ
الْمُسْتَقِيمَ» وقوله «نَسْتَعِينُ .... الضَّالِّينَ»[2].

الجناس والسجع في القرآن المعنى هو الذي طلبهما واستدعاهما
لتمكينه في ذهن السامع، فهما من صميم البلاغة
ومقاصدها التي تؤم.

رحمة الله على عبد القاهر القائل: إنك لاتجد تجنيساً
مقبولاً ولاسجعاً حسناً حتى يكون المعنى هو الذي طلبه

---

(١) انظر إعراب القرآن الكريم وبيانه جـ١/١٦، ١٧.

(٢) انظر البحر المحيط جـ١/٣١.

واستدعاه وساق نحوه وحتى لاتجده لاتبتغى به بدلاً ولاتجد عنه حولاً[١] .

وخلاصة ماقيل فى إطلاق السجع فى القرآن هو :

- أنه لاحرج علينا أن نطلق على فواصل القرآن أسجاعاً، وأنه لافرق بين مشاركة بعض القرآن لغيره من الكلام فى كونه مسجوعاً ، وبين مشاركة جميعه فى كونه عرضاً وصوتاً وحروفاً وكلاماً وعربياً ومؤلفاً ولافرق بين الفواصل التى تتماثل حروفها فى المقاطع، وبين السجع[٢] ، ثم كيف يعاب السجع[٣] على الإطلاق، وإنما نزل القرآن الكريم على أساليب الفصيح من كلام العرب، فوردت الفواصل فيه بإزاء ورود الأسجاع فى كلامهم، وإنما لم يجئ على أسلوب واحد لأنه لايحسن فى الكلام جميعاً أن يكون مستمراً على نمط واحد لما فيه من التكلف ، ولما فى الطبع من الملل ولأن الافتنان فى ضروب الفصاحة أعلى من الاستمرار على ضرب واحد، فلهذا وردت بعض آى القرآن متماثلة المقاطع وبعضها غير متماثل .

---

(١) أسرار البلاغة ص٧ .

(٢) أما قول الرماني إن الفواصل بلاغة والسجع عيب، كان هذا القول مثار جدل شديد بين العلماء، ولم يأخذ أحد برأيه فى تهجين السجع على الإطلاق ، بل استحسنوه ولم يستقبحوا منه إلا ماكان متكلفاً متعسفاً . انظر أثر النحاة فى البحث البلاغى ٢٦٠، ٢٦١ .

(٣) انظر الإتقان فى علوم القرآن جـ٢/ ٢٩٥ .

حسن الانتهاء : وهو آخر مايعيه السمع ، ويرتسم فى النفس ولهذا جاءت خواتم السور متضمنة للمعانى البديعة مع إيذان السامع بانتهاء الكلام، حتى يرتفع معه تشوف النفس إلى مايذكر بعد .

ومن أوضحه تفصيل جملة المطلوب فى خاتمة فاتحة الكتاب إذ المطلوب الأعلى الإيمان المحفوظ من المعاصى المسببة لغضب الله والضلال، ففصّل جملة ذلك بقوله «الَّذِينَ أَنعَمْتَ عَلَيْهِمْ» والمراد المؤمنين .

ولذلك أطلق الإنعام ولم يقيده ليتناول كل إنعام، لأن من أنعم عليه بنعمة الإيمان فقد أنعم عليه بكل نعمة، لأن نعمة الإيمان مستتبعة لجميع النعم ثم وصفهم بقوله : «غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ» يعنى أنهم جمعوا بين النعم المطلقة وهى نعمة الإيمان، وبين السلامة من غضب الله والضلال المسببين عن معاصيه وتعدى حدوده (١) .

وختاماً:

أرجو من الله العلى القدير أن أكون قد وفقت فى استخراج وبيان بعض ماتحمله «أم الكتاب» من أسرار بلاغية تبين مافى كتاب الله معجزة الإسلام الخالدة - من إعجاز فى لغته

---

(١) انظر البرهان فى علوم القرآن حـ١/١٨٢، وبغية الإيضاح جـ٤/١٥٧، ١٥٩ .

وبلاغته، أثرت فى غير العربى تأثيرها فى العربى لأن بلاغة القرآن أكبر من أن يحيط بها علوم البلاغة أو تعبر عنها الفنون البلاغية، ففنون البلاغة فى القرآن معجزة فى مواضعها، كإعجاز حروفه وكلماته وتراكيبه واستقامة وزنه وملاحته وطيب نغمه، وغير ذلك مما لايدرك إلا بإتقان دراسة علوم البلاغة مع مايساعد ذلك من الفهم السليم والذوق المستقيم .

إن فنون البلاغة فى القرآن تجل عن الحصر والعد ولايحيط بها إلا الله سبحانه وتعالى، بدليل مايستخرجه الدارسون كل يوم من أسرار جديدة فى القرآن لم ينتبه لها السابقون، وتلك كلمة الله التى أودعها كتابه فهو لايخلق عن كثرة الرد، ولاتنقضى عجائبه ليظل محل أنظار وقلوب الباحثين والدارسين حتى يرث الله الأرض وماعليها .

ولله الحمد اولاً واخيراً .

بقلم الدكتور

عبد المجيد عبد المجيد هنداوى جعفر

قسم البلاغة والنقد

بكلية الدراسات الإسلامية والعربية

للبنات بالمنصورة

«مراجع البحث»

ابن القيم وجهده البلاغى فى تفسير القرآن للدكتور/ عبد الفتاح لاشين - دار الرائد بيروت .

الإتقان فى علوم القرآن للسيوطى تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم - دار التراث .

أثر النحاة فى البحث البلاغى للدكتور/ عبد القادر حسين - نهضة مصر .

أسرار البلاغة لعبد القاهر الجرجانى تحقيق الدكتور محمد عبد المنعم خفاجى - مكتبة القاهرة .

إعراب القرآن الكريم وبيانه لمحى الدين الدرويش دار الإرشاد - حمص سوريا .

الأقصى القريب للتنوخى - مطبعة السعادة ١٣٢٧ هـ .

أنوار الربيع فى أنواع البديع للمدنى - تحقيق شاكر هادى - مطبعة النعمان العراق .

الإيضاح للخطيب القزوينى - دار الجيل - بيروت .

بدائع الفوائد لابن القيم - بيروت .

البرهان فى علوم القرآن للزركشى - تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم - دار الفكر .

بغية الإيضاح لتلخيص المفتاح للشيخ عبد المتعال الصعيدى - المطبعة النموذجية .

١٢ - البيان عند الشهاب الخفاجى للدكتور / فريد النكلاوى - مطبعة الأمانة ١٩٨٤ م .

١٣ - البيان والتبيين للجاحظ تحقيق فوزى عطوى - دار صعب - بيروت .

١٤ - التبيان فى علم المعانى والبديع والبيان للطيبى - تحقيق الدكتور / هادى عطيه - مكتبة النهضة .

١٥ - التحبير فى علم التفسير للسيوطى - تحقيق الدكتور / فتحى فريد - دار المنار .

١٦ - تفسير أبى السعود - دار الفكر .

١٧ - تفسير البحر المحيط لأبى حيان الأندلسى - دار الفكر بالقاهرة .

١٨ - تفسير القرطبى - طبع دار الكتب المصرية .

١٩ - التفسير القيم لابن القيم - جمع محمد بن أويس الندوى - القاهرة ١٣٦٨ هـ .

٢٠ - التفسير الكبير للفخر الرازى - بولاق - ١٢٧٩ هـ .

٢١ - تلخيص البيان فى مجازات القرآن للشريف الرضى - تحقيق الدكتور / على محمود مقلد - دار مكتبة الحياة - بيروت .

٢٢ - الجامع الكبير لابن الأثير - المجمع العلمى العراقى .

٢٣ - حاشية السيد على المطول - مطبعة أحمد كامل ١٣٣٠ هـ .

٢٤ - حاشية سيلكوتى على المطول - مطبعة اسلانبول ١٣٠١ هـ .

٢٥ - دلائل الإعجاز لعبد القاهر الجرجانى تحقيق الدكتور محمد عبد المنعم خفاجى - مكتبة القاهرة .

ر البيان في تفسير آيات الأحكام للصابوني - دار

ر المعارف .

ر المعاني للألوسي - دار الفكر .

ر المسير في علم التفسير لابن الجوزي - طبعة دمشق

١٩١٠ م .

ر الصاحبي لابن فارس - مطبعة المؤيد ١٩١٠ م .

ر روائع التفاسير للصابوني - دار القرآن الكريم - بيروت .

ر العزار للعلوي - المقتطف ١٩٣٤ م .

ر عروس الأفراح "ضمن شروح التلخيص" مطبعة السعادة مصر .

ر البلاغة للدكتور - عبد القادر حسين - مكتبة الآداب -

القاهرة .

ر ظلال القرآن للأستاذ - سيد قطب - دار الشروق .

الكتاب لسيبويه - المطبعة الأميرية - بولاق ١٣١٦ هـ .

الكشاف للزمخشري - دار المعرفة بيروت .

لسان العرب لابن منظور - دار المعارف .

المثل السائر لابن الأثير - تحقيق الدكتور/ أحمد الحوفي

الدكتور - بدوي طبانه - دار نهضة مصر .

المحتسب لابن جني - المجلس الأعلى للشئون الإسلامية.

مفتاح العلوم للسكاكي - شرح نعيم زرزور - دار الكتب

العلمية - بيروت .

٤١ - المكتفى فى الوقف والابتداء لأبى عمرو الدانى - تحقيق جابر زيدان - الشئون الدينية بالعراق .

٤٢ - من بلاغة القرآن للدكتور/ أحمد بدوى - مطبعة نهضة مصر .

٤٣ - الواحدى ومنهجه فى التفسير للدكتور / جوده المهدى - المجلس الأعلى للشئون الإسلامية .